الأمير والفقير

تأليف
مارك توين

ترجمة
أميرة علي عبد الصادق



الأمير والفقير

The Prince and the Pauper

مارك توين

Mark Twain

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ٢٠١١/١٦٤٠٩
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

توين، مارك
الأمير والفقير / تأليف مارك توين.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ٠٨ ٥

١–القصص الإنجليزية

أ–العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: حنان الكرارجي، تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

المحتويات

١- مولد الأمير والفقير ٧
٢- عالمان يتصادمان ١١
٣- إدوارد يصل إلى «أوفال كورت» ١٧
٤- مغامرات توم في غياب إدوارد ١٩
٥- توم يتعلم قواعد القصر ٢٣
٦- الختم الملكي ٢٧
٧- أولى ليالي إدوارد بعيدًا عن القصر ٢٩
٨- عاش ملك إنجلترا! ٣٣
٩- إدوارد ومايلز يعرفان المزيد ٣٧
١٠- إدوارد في الشرك ثانيةً ٤٥
١١- إدوارد يطلع على حياة اللصوص ٤٩
١٢- وقت للمشاركة ٥١
١٣- العودة إلى اللصوص ٥٣
١٤- قصر هيندون ٥٧
١٥- مايلز المدعي ٦١
١٦- السجن ٦٣
١٧- يوم التتويج ٦٧
١٨- أخيرًا نهاية سعيدة! ٧١

الفصل الأول

مولد الأمير والفقير

يُحكى أنه في قديم الزمان وُلد طفل بمدينة لندن، كان يُدعى توم كانتي، لأسرة مُعدمة لا يسعها تحمل تكاليف تنشئته. وفي اليوم نفسه، وببقعة مختلفة من المدينة ذاتها، وُلد طفل آخر لأسرة ثرية طالما تاقت له. وكان هذا الطفل يُدعى إدوارد تيودور، ووالده هو ملك إنجلترا.

في حقيقة الأمر، كانت إنجلترا بأسرها تتوق لهذا الصبي الصغير. فعندما وُلد، خرج الناس مهللين في الشوارع، وعانق الأغراب بعضهم بعضًا، وانهمرت دموع الفرحة من أعينهم، وعُزفت الموسيقى، ورقص الناس، وأُقيمت الحفلات والاستعراضات. تمنى الجميع، وخاصة الملك هنري، صبيًّا. وبالرغم من أن لديه أختين تكبرانه سنًّا، فقد أصبح إدوارد الآن وريثًا للعرش، وسيصير يومًا ما ملكًا للبلاد.

لم تسترع كل هذه الجلبة انتباه إدوارد، أمير ويلز، الذي كان ينام مدثرًا بالحرير في سريره الدافئ، لا يؤرق جفنيه شيء في هذا العالم. وسهر الجميع على راحته، بما في ذلك الملك والملكة والنبلاء من الرجال والنساء في البلاط الملكي والساسة رفيعو الشأن.

أما توم كانتي الصغير، فلم يحظ بمثل هذا النوم الهانئ حيث أحاطت به الأغطية البالية، ولم يكن هناك حطب لإشعال النيران لتدفئته. وقلقت والدته عندما فكرت في كيفية توفير المال اللازم لإطعام هذا الطفل الجديد. أكنَّت والدة كانتي حبًّا جمًّا لصغيرها، وسعدت بإنجابها له، لكنها كانت تخشى معاناة هذا الرضيع المسكين من مصاعب الحياة. فهي تتمكن بالكاد من تحمل تكاليف طعام طفلتيها الأخريين. قبَّلت السيدة كانتي جبين توم، وتمنت له أحلامًا سعيدة.

مرت أعوام عدة، وإدوارد يحيا محاطًا بالثروات والجواهر، في حين لم يملك توم من دنياه سوى أقل القليل. ومع ذلك فقد شب كلاهما ليصيرا قويين ونافعين وذكيين.

كان توم وأسرته يقطنون بشارع «أوفال كورت» بالقرب من جسر لندن، في الدور الثالث بمبنى عتيق متهالك آيل للسقوط. عاش توم في غرفة واحدة مع والديه وجدته وأختيه التوءمين، نان وبيت، اللتين تكبرانه سنًّا. فكان والداه ينامان على سرير ملتصق بأحد أركان الغرفة، في حين كانت جدته تنام في الركن المواجه لهما. أما توم وأختاه، فكانوا يتمتعون بحرية أكبر في إعداد أماكن نومهم؛ فكان بإمكانهم اختيار أي مكان على الأرض ليناموا فيه.

كانت نان وبيت تبلغان من العمر خمسة عشر عامًا، واتسمتا بالعطف وطيبة القلب، شأنهما في ذلك شأن والدتهما. أما السيد كانتي والجدة، فلم يكونا على القدر نفسه من الحنان. فكان كانتي لصًّا، بينما كسبت الجدة رزقها بالتسول في الشوارع. وسعى السيد كانتي لتحويل أطفاله إلى لصوص، لكن نان وبيت وتوم ما كانوا ليسرقوا. لذا اضطر الأطفال للتسول، وعند عدم جلبهم ما يكفي من المال عند عودتهم للمنزل، كان السيد كانتي يستشيط غضبًا، ويصرخ أحيانًا في وجوههم، وبخاصة توم، عندما تثور ثائرته.

وكثيرًا ما كان والد توم يجبره على النوم دون عشاء، وهو يقول: «إذا لم تتمكن من جلب المال إلى المنزل، فليس هناك ما تأكله.» وفي هذه الليالي كانت والدة توم تحضر له الطعام خلسة؛ بضع كِسرات أو لقيمات ادخرتها له من طعامها. شعر الجميع بالجوع في منزل كانتي حيث لم يتوفر أبدًا ما يكفي من الطعام لهم جميعًا.

على الرغم من الشدائد الكثيرة التي كان توم يعاني منها، فقد كان الصبي سعيدًا بحياته. فهي الحياة نفسها التي يعيشها جميع أصدقائه، ولم يكن يدري أن هناك أسلوبًا آخر للعيش.

وفي أحد الأيام انتقل قس عجوز يُدعى الأب آندرو إلى البناية التي يقطنها توم وأسرته. ولم يكن لهذا القس أبرشية آنذاك، لذلك عاش وسط الفقراء. وكان يستقطع في كثير من الأحيان جزءًا من يومه لتعليم أطفال أسرة كانتي القراءة والكتابة. لكن السيد كانتي كان يرى أن قضاء الوقت مع الكتب يعني وقتًا أقل للتسول بالشوارع، ومن ثم كان على الأطفال التعلم سرًّا. وكان توم طالبًا شغوفًا، فأحب عالم الكتب والقراءة، حتى إن القس العجوز علمه بعض الكلمات اللاتينية.

صار توم يقضي مزيدًا من الوقت في «المدرسة»، وكان القس يقص عليه روايات عن الفرسان والعمالقة، والجنيات والقلاع المسحورة، والملوك والأمراء، وسرعان ما امتلأت رأس توم بهذه القصص. فكان يظل مستيقظًا في الليل تاركًا لخياله العنان ومحاولًا

نسيان حصيرة القش التي ينام عليها ومعدته الخاوية ليفكر بدلًا من ذلك في الحياة بين جدران القلاع. وبمرور الوقت أصبحت لدى توم أمنية واحدة يرغب بشدة في تحقيقها، ألا وهي رؤية أمير حقيقي.

بينما كان توم يقرأ المزيد عن الحياة الراقية التي ينعم بها الملوك والأمراء، بدأ ينتبه إلى ملابسه الرثة، وأدرك أن هناك أناسًا لا ينامون متضورين جوعًا كل ليلة. كما أنه ليس لزامًا على البعض التسول في الشوارع للحصول على الفتات من الطعام. وظل توم يلعب مع أصدقائه ويستمتع بحياته، لكن شيئًا تغير. فعلى الرغم من أنه اعتاد الاستمتاع باللعب في الوحل والماء على شاطئ نهر «التايمز»، أصبح يقضي هذا الوقت الآن في الاغتسال وتنظيف نفسه. كان يحاول التغير تدريجيًّا حتى يصبح شبيهًا بشخصيات القصص التي يرويها له القس آندرو.

عندما كان توم يجتمع مع أصدقائه وحدهم، كان يقيم بلاطًا ملكيًّا، ويعين نفسه أميرًا، ويملي على الجميع كيف يتصرفون وماذا يتعين عليهم فعله. واستمتع أصدقاؤه باللعبة، واستمروا في ممارستها، ولم يدرك أحد أن الأمر كان يعني ما هو أكثر من مجرد اللعب في نظر توم؛ فهو يتدرب لليوم الذي سيصبح فيه فعلًا في البلاط الملكي.

بالرغم من هذه اللحظات الممتعة، ظل توم يقضي الجزء الأكبر من يومه مرتديًا ثيابه الرثة، متسولًا في الشوارع، ليعود إلى المنزل كل ليلة مدركًا أن أباه وجدته سيصبان عليه جام غضبهما. وكان ينتظر والدته لتحضر له الطعام خلسة في وقت متأخر من الليل. وفي أثناء حدوث كل ذلك، كانت رغبته لرؤية أمير حقيقي تزداد قوة.

وفي أحد أيام شهر يناير/كانون الثاني، كان توم يسير في الشوارع حزينًا حافي القدمين ومياه الأمطار الباردة تتساقط عليه وهو لا يملك معطفًا أو مظلة تقيه منها. كان توم يتفقد واجهات المحال متأملًا الشطائر والحساء وحلوى البودنج، متشوقًا للغاية إلى الحصول على إحدى هذه الشطائر. ألن يكون من الرائع الجلوس في أحد هذه المحال والاستمتاع بوجبة عشاء دافئة؟ ملأ الحزن قلب توم المسكين في ذلك اليوم، وعاد إلى المنزل تلك الليلة مبللًا يشعر بالبرد، وذهب مباشرة للنوم. راودته الأحلام طوال الليل عن القصور والأمراء والولائم الضخمة؛ ورأى في الحلم أنه أمير يملك بين يديه كل شيء، وعندما استيقظ في الصباح ورأى الفقر والقذارة من حوله، تزايد شعوره بالتعاسة، واستلقى على الحصيرة القش التي ينام عليها وأخذ في البكاء.

الفصل الثاني

عالمان يتصادمان

نهض توم من فوق حصيرة القش جائعًا ومصابًا بالدوار، وغادر المنزل دون أن يتحدث مع أحد، وهام على وجهه في الشوارع مستغرقًا في أفكاره. لم يدرك توم مدى ابتعاده عن منزله إلا بعد فترة طويلة من الوقت، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يبعد فيها عن منزله كل هذه المسافة، لكنه لم يتوقف، بل استمر ماضيًا في طريقه.

تجاوز توم بوابات المدينة وصولاً إلى الريف، وسار بمحاذاة سور المدينة. وعلى بُعد وقعت عيناه على قصر عظيم. كان هذا القصر هو قصر «ويستمنستر» حيث يعيش الملك هنري والأمير إدوارد أيضًا. وتساءل توم هل ستسنح له الفرصة لرؤية الأمير الحقيقي.

كان الحراس يقفون على جانبي بوابة القصر في وضع استقامة وثبات شديدين، وتجمع بعض الأشخاص الآخرين في الجوار آملين في إلقاء نظرة خاطفة على العائلة المالكة. راقب توم البوابات وهي تُفتح ويخرج منها العديد من العربات الجميلة مغادرةً أراضي القصر، وكان على يقين من أن هذه العربات تحمل أشخاصًا متأنقين ورائعين.

اقترب توم من البوابات ببطء، وكان مدركًا تمامًا للملابس الرثة التي يرتديها والقذارة التي تغطي وجهه، ويعي أنه يشذ عن باقي الجمع، لكن كان لديه فضول شديد. ولك أن تتخيل كيف انحبست أنفاسه عندما رأى مجموعة صغيرة من الأشخاص داخل أراضي القصر يتوسطهم صبي صغير يرتدي الساتان والحرير ويعلق سيفًا مرصعًا بالجواهر بجانبه. وعلم توم في الحال أن هذا الصبي هو الأمير؛ أخيرًا الأمير إدوارد بلحمه وشحمه.

اتسعت عينا توم من فرط الإثارة، وأصبحت رغبته في رؤية الأمير عن قرب أكثر إلحاحًا. فقد توم شعوره بمن يحيطون به، وتلاشى من أمام عينيه الحراس وزائرو

القصر الآخرون. ودون أن يدري ما يفعل، اندفع بوجهه قبالة قضبان البوابة، وكان نحيلًا لدرجة أنه كاد ينزلق عبرها.

وفجأة شعر بيد قوية تمسك بذراعه، وصرخ فيه الحارس وهو يقول: «عندك أيها المتسول! انتبه لتصرفاتك.»

ضحك الجمع، وأشاروا إلى توم وهم يقولون: «نعم! لا تقترب أكثر مما ينبغي أيها المتسول!»

جاء صوت من داخل أراضي القصر يقول: «دعوه وشأنه! كيف تجرءون على إهانة أحد رعايا والدي؟» واندفع الأمير الصغير نحو البوابات لمساعدة توم وهو يستشيط غضبًا ويقول: «افتحوا البوابات ودعوه يمر! لن أقف مكتوف الأيدي بينما يُعامل أي شخص بمثل هذه القسوة.»

توقف الجمع عن الضحك والإشارة إلى توم، وخلعوا قبعاتهم وانحنوا لأميرهم وهم يقولون: «عاش أمير ويلز!»

فتح الحراس البوابات ليدخل منها توم، وشاهدوا أمير الفقراء بثيابه البالية وهو يجري أمامهم ليحيي أمير الأثرياء بثيابه الثمينة.

نظر إدوارد إلى توم، وقال: «تبدو متعبًا وجائعًا. أنا آسف على قسوة حارسي معك. رجاءً تعالَ معي!»

تقدم عدد من الحراس للأمام عندما بدأ توم في اللحاق بإدوارد، فلوح لهم الأمير بالتنحي جانبًا، ولم يحاول أحد بعد ذلك منع توم من مرافقة الأمير.

قاد إدوارد توم إلى داخل القصر، وتحدث مع الخدم الواقفين في الرواق آمرًا إياهم بإحضار الغداء إلى غرفته. وانعقد لسان توم؛ فقد كان القصر أجمل بكثير مما تخيل.

كانت غرفة الأمير مذهلة، حيث احتوت على مدفأة تتوهج بها النيران، وسجادة تكسو الأرض، وكراسٍ كبيرة مريحة. وكانت أشعة الشمس تتدفق عبر النوافذ الزجاجية النظيفة إلى داخل الغرفة. وقبل أن تسنح لتوم الفرصة بإلقاء نظرة على الغرفة، وصل الخدم حاملين طعام الغداء.

لم يرَ توم شيئًا كهذا من قبل. فقد قرأ عن الولائم في الكتب، لكن رؤيتها بأم عينه كانت أمرًا مختلفًا تمامًا. تضمنت الوليمة فاكهة ولحمًا باردًا وأرغفة من الخبز. حدق توم في المائدة، ولم يعرف ما يجب عليه فعله.

لاحظ إدوارد عدم شعور توم بالراحة، فسحب كرسيًّا ليجلس عليه توم، وقال له: «رجاءً اجلس! تناول ما يحلو لك من الطعام.»

وبينما كان يجلس على المائدة، سأل الأمير توم: «ما اسمك؟»

– «توم كانتي.»

– «هل تعيش بالقرب من هنا؟»

«لا» أجاب توم وهو يتحدث بصعوبة، حيث كان يستمتع بالطعام بشدة، لكنه لم يرغب في التحدث وفمه ممتلئ، واستطرد قائلًا: «أعيش بعيدًا جدًّا عن هنا في «أوفال كورت».»

فكرر الأمير قوله: ««أوفال كورت»؟ لم أسمع بهذا المكان قط، هل هو مكان جيد؟»

«حسنًا» أمعن توم في التفكير قبل أن يجيب قائلًا: «إنه مختلف كثيرًا عن منزلك.»

«وهل لديك عائلة؟» ملأ الفضول الأمير بشأن هذا الصبي الغريب، فلم يسبق له الالتقاء بأحد مثله من قبل؛ كان توم يرتدي ثيابًا بالية ويسير بلا حذاء في مثل هذا اليوم قارس البرودة.

– «نعم، لدي أم وأب وأختان يكبرانني سنًّا، وأيضًا تعيش جدتي معنا.»

لاحظ الأمير الحزن يرتسم على وجه توم أثناء حديثه، فسأله: «هل يحسنون معاملتك؟»

رد توم بقوله: «أمي حنون للغاية، وكذلك أختاي، نان وبيت.» ثم صمت قليلًا، ونظر إلى الأمير، وقرر أنه يجدر به تحري الصدق في الحديث. «أبي وجدتي ليسا على القدر نفسه من الحنان، وعندما يغضبان — وكثيرًا ما يفعلان — يصرخان في وجهي، ويجبراني على النوم دون عشاء أيضًا.»

هب الأمير واقفًا والغضب يتقد من عينيه، وقال: «ماذا! هل تعني أنهما يمنعان عنك الطعام؟»

نكس توم رأسه وأجاب بهدوء شديد: «نعم، يا سيدي!»

– «هذا أمر مروع! لن أسمح باستمرار ذلك. سأتحدث مع والدي ليأمر بإلقاء القبض على هؤلاء المتوحشين.»

فقال توم: «أعتقد أن لدى والدك أمورًا أكثر أهمية ليقوم بها!»

«هراء!» لوح إدوارد بيديه، وقال: «لن أسمح بالتجاوز عن مثل هذا الظلم.» ثم نظر إلى الصبي مهلهل الثياب واستطرد: «أتعلم، يتسم والدي بحدة الطبع. لم يصرخ في وجهي قط، لكنني رأيته عندما يشتد غضبه مع أشخاص آخرين. وكم أستاء من رؤيته في هذه الحال.»

ابتسم توم، إذ فرح بوجود قاسم مشترك بينه وبين الأمير.

سأل إدوارد: «هل يعمل لدى أسرتك الكثير من الخدم؟»

«يا إلهي! كلا» كاد توم يضحك وهو يقول هذه الكلمات، لكنه كان يعرف أنه من الوقاحة فعل ذلك.

صُعق الأمير. «لكن كيف تخلع أختاك ملابسهما ليلًا؟ ومن يساعدهما في ارتدائها صباحًا؟»

– «إن عليهما الاعتماد على أنفسهما في كل هذه الأمور، لكنهما لا تملكان سوى فستان واحد لكلٍ منهما، لذلك فالأمر لا يمثل مشقة كبيرة لهما.»

بدت الصدمة على وجه إدوارد مرة أخرى وهو يقول: «لا يُعقل أنك تقول الحقيقة!»

فأجاب توم: «حسنًا، لا تمتلك كل واحدة منهما سوى جسد واحد.»

«سأتولى هذا الأمر، ستحظى أختاك بعدد من الفساتين أكثر مما تحلمان به، سأعمل على تحقيق ذلك على الفور.» لاحظ إدوارد نظرة الدهشة على وجه توم. «لا تشغل بالك، ليس هناك داعٍ لشكري.» ولوح بيده ثانيةً.

أضاف إدوارد: «عليّ أن أعترف يا توم أنك تجيد الحديث للغاية، فهل ذهبت إلى المدرسة؟»

فأجاب توم: «كلا، لكن أحد جيراننا يعمل قسًّا، وقد علمني القراءة والكتابة، حتى إنه علمني بعض الكلمات اللاتينية. أنا لا أعلم الكثير من الكلمات، لكنني لا أزال أتعلم.»

قال إدوارد: «يجب أن تواظب على ذلك يا توم، وسيزداد الأمر يسرًا مع الممارسة.»

جلس إدوارد هادئًا للحظة، ثم قال: «أشعر أحيانًا أنني قضيت حياتي بأكملها في المدرسة؛ ساعات طوال أقضيها مع المعلمين الخصوصيين كل يوم أو أتعلم فيها إدارة شئون البلاد. فهم يعدونني لأصبح ملكًا يومًا ما، وليس هناك إلا القليل من الوقت للقيام بأي شيء آخر.» ثم نظر إلى توم، وقال: «ماذا تفعل عندما لا تكون في المدرسة؟»

أجاب توم: «حسنًا، يجبرني أبي على التسول في الشوارع من أجل المال، ويغضب بشدة عندما لا أجلب ما يكفي من المال إلى المنزل، ولذا فأنا أقلق بشدة من هذا الشأن.»

ابتسم توم للأمير، واستطرد: «لكن لدي أصدقاء رائعين، وهناك دائمًا ما يمكننا فعله معًا؛ نشاهد عروض العرائس المتحركة التي تقام في الميدان، وكذلك العروض المسرحية، وأحيانًا يأتي أحد العازفين ومعه قرد أليف للترفيه عن الناس في الشارع. كما أننا نتسابق ونتعارك فيما بيننا. وفي فصل الصيف، نذهب للسباحة في النهر.» ابتسم

توم ثانيةً، ثم قال: «أعتقد أن هذا هو الأمر المفضل لديّ؛ فاللعب برش الماء يسعدني للغاية.»

بدا الحزن هذه المرة على وجه الأمير. «كم أتمنى قضاء يوم مثل هذه الأيام! يوم واحد للعب في الماء والتسابق، يوم واحد لا ألقي فيه بالًا للدروس والواجبات الملكية.»

ونظر إدوارد إلى توم بثيابه الرثة وقال له: «يا ليت بإمكاني ارتداء ملابسك والاستمتاع بحياتك ليوم واحد؛ فليس هناك ما يمكن أن يسعدني أكثر من ذلك.»

حدق توم في ذهول، وقال: «ليت بإمكاني يا سيدي ارتداء ملابسك مرة واحدة فقط؛ فهذا أقصى ما أبتغيه.»

وقف الأمير، وقال: «إذن، فلنفعل ذلك! لنتبادل ملابسنا. ربما لن يستمر الأمر لأكثر من بضع دقائق، لكنها ستفي بالغرض!»

وبعد بضع دقائق، كان توم يقف في الغرفة الملكية مرتديًا ملابس الأمير، وإدوارد يقف أمامه مرتديًا ملابس الفقير الرثة. سار الصبيان نحو إحدى المرايا للنظر إلى أنفسهما، ووقفا جنبًا إلى جنب محدقين في المرآة، وكلاهما مصدوم ومذهول مما رآه.

قال إدوارد مترويًا: «انظر إلينا! لم ألحظ من قبل كم نحن متشابهان، فلنا نفس الطول ونفس لون الشعر والعينين، إننا كالتوءمين!»

فرد توم: «أرى ذلك، جلالتك! أظن أنه لا يمكن لأحد أن يميز أحدنا عن الآخر.» واستمر الصبيان يحدق كل منهما في الآخر.

قال إدوارد: «انتظر! هل هذه كدمة على ذراعك؟ هل حارس القصر هو من تسبب فيها بإمساكه إياك؟»

فرد توم: «نعم، أظن ذلك، ولكن لا عليك، فقد كان الحارس يؤدي ...»

«هراء!» لوح الأمير بيده وقال: «سأتولى هذا الأمر في الحال. رجاء انتظرني هنا، لن أغيب سوى لحظات، أعدك بذلك.»

أمسك إدوارد ببعض الأشياء الهامة التي كانت على مكتبه، ووضعها سريعًا في مكان آمن، ثم ركض خارجًا من الباب ومتوجهًا نحو أراضي القصر. ولسوء الحظ، نسي إدوارد أنه لا زال يرتدي ملابس توم الرثة، وجرى نحو البوابات وهو يصيح: «افتحوا البوابات! يجب أن أتحدث إليكم.»

فتح الحارس، الذي سبق أن قسا على توم في وقت مبكر من هذا اليوم، البوابات، وما إن بدأ إدوارد حديثه حتى دفعه الحارس إلى الطريق وهو يقول: «ابتعد عن هنا، أيها المتسول!»

ضحك جمع الناس وأشاروا إلى الصبي مجددًا.

صاح إدوارد: «ويحك! كيف تجرؤ على معاملتي هكذا! أنا أمير إنجلترا!»

علت ضحكات الجميع هذه المرة، وانحنوا أمام إدوارد وهم يقولون: «عفوًا، جلالتك!» ودفع أحدهم إدوارد، فسقط على الأرض.

«كيف تجرؤ على لمسي!» كان إدوارد غاضبًا ومرتبكًا؛ لماذا يهزأ الجميع به؟ فلم يسبق أن عامله أحد هذه المعاملة.

قال الحارس: «هيا، لتفسحوا الطريق أمام أمير إنجلترا.»

فتفرق الجمع، ودفع الحارس إدوارد إلى مسافة أبعد نحو الطريق، وهو يقول: «تحرك أيها المتسول! ولا تدعني أراك بالقرب من القصر ثانيةً.»

استمر إدوارد المسكين في احتجاجه، لكن لم يصدقه أحد، بل استمر الناس في الاستهزاء به ودفعه بقوة. وبعد برهة قصيرة، ملَّ الجمع من لعبتهم، وأصبحوا لا يجدون متعة في ادعاء هذا المتسول بأنه الأمير، فغادر بعضهم عائدين إلى منازلهم، في حين صاح آخرون في إدوارد، ودفعوه بقسوة.

وفي آخر الأمر، أدرك إدوارد أنه ما للجدال من جدوى. إنه محاصر خارج منزله وما من أمل في الدخول إليه. فسار بالطريق — على غير هدى — آملًا في الحصول على بعض المساعدة.

الفصل الثالث

إدوارد يصل إلى «أوفال كورت»

لم يتعرف إدوارد على أيٍ مما يحيط به. كان يعلم أنه في لندن، لكن لم تسبق له رؤية هذا الحي من قبل. واستوقف أحد رجال الشرطة ليستوضح منه الأمر، لكن الشرطي دعاه بالشقي المزعج وأبعده عنه. كان إدوارد المسكين وحيدًا تمامًا؛ وعلى الرغم من أنه طالما حلم باليوم الذي يصبح فيه بمفرده، فهو يشعر الآن بالرعب بعد أن استحال حلمه حقيقةً.

بدأت السماء حينئذٍ تمطر، واستمر الأمير المشرد المسكين ماضيًا في رحلته عبر الطرقات، وفجأة أمسك رجل ما بياقته.

قال الرجل: «ألا تزال في الخارج حتى هذه الساعة المتأخرة؟ ولم تجلب بنسًا واحدًا إلى المنزل من أجل والدتك أو من أجلي؟»

حرر إدوارد نفسه من قبضة الرجل واستدار لمواجهته: «هل أنت والده؟ هل أنت السيد كانتي؟» نظر الرجل إلى إدوارد مستغربًا. «حمدًا لله أنك وجدتني، الآن يمكننا إعادة الأمور إلى نصابها.»

قال السيد كانتي: «والده؟ ما هذا اللغو يا فتى؟ أنا والدك.»

– «أرجوك، دعنا لا نؤخر الأمر أكثر من ذلك، فأنا أشعر بالألم والإرهاق والبرد، خذني إلى والدي الملك على الفور.»

بدأ السيد كانتي في الضحك بينه وبين نفسه. «حسنًا، لقد تحقق الأمر أخيرًا؛ لقد جُنَّ جنونك، توم أصبح مجنونًا!» وضحك السيد كانتي، فهو يستمتع بمعاناة الآخرين، وقال: «كفانا من ذلك!» وأمسك بياقة الأمير مرة أخرى، وأخذ يجره في الطريق.

تقدم رجل آخر نحوهما، لم يستطع إدوارد رؤيته بوضوح في الشارع المظلم، ولم يلاحظ سوى أن الرجل كان يلبس رداءً طويلًا.

قال الرجل: «اترك الصبي وشأنه، فأنت تؤلمه.»

«لا يمكنك أن تملي عليّ كيف أعامل ابني!» قال السيد كانتي ذلك وقد بدأ الغضب يتملكه؛ لقد جُرحت كرامته، فهو لا يحب أن يتحداه أحد.

قال الرجل: «إنه ليس سوى صبي صغير.»

قال السيد كانتي غاضبًا: «لا تتدخل فيما لا يعنيك.» ودفع الرجل الذي سقط على الرصيف محدثًا صوتًا مكتومًا.

أمسك السيد كانتي بالأمير، وجذبه بعنف في الطريق. قاومه إدوارد، وأخذ يصيح طلبًا للمساعدة طوال الطريق إلى منزل كانتي.

الفصل الرابع

مغامرات توم في غياب إدوارد

وجد توم كانتي الكثير من الأمور لتسليته عندما تُرك بمفرده في غرفة الأمير. فقضى وقتًا طويلًا ينظر لنفسه في المرآة، واستدار أولًا يسارًا ثم يمينًا، ثم سار مبتعدًا مقلدًا مشية الأمير، ونظر خلفه أثناء السير حتى يرى نفسه في المرآة. تظاهر توم أن الغرفة مليئة بكبار القوم ممن يحملون لقب دوق وإيرل، وتحدث مع كلٍّ منهم بشأن أمور مهمة للغاية. وعندما انحنت هذه الشخصيات التي نسجها خياله أمامه، طلب منهم النهوض ولوح بيده محاولًا بأقصى جهده تقليد تلويح الأمير.

وفي آخر الأمر، أدرك توم أن الأمير قد طال غيابه كثيرًا. وقد بدأ اهتمامه بالتقاط الأشياء وتأملها يفتر، كما بدأ يتسلل إليه شعور قوي بعدم الراحة؛ فماذا يمكن أن يحدث إذا دخل أي شخص وأمسك به مرتديًا ملابس الأمير؟ وما عقوبة انتحال شخصية الأمير؟

مشى توم على أطراف أصابع قدميه حتى وصل إلى الباب وفتحه بهدوء، ثم أنعم النظر في الرواق. فهب ستة خدام من مقاعدهم واقفين، وسأله أحدهم: «أمرك يا سيدي؟»

تراجع توم سريعًا إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب. وأخذ يفكر: «إنهم يسخرون مني. سيسرعون في استدعاء الحراس الآن.» وأخذ يسير جيئة وذهابًا في الغرفة.

وفي هذه اللحظة، فُتح الباب وأعلن أحد الخدم: «ليدي جين جراي.» اندفعت فتاة صغيرة السن ترتدي فستانًا جميلًا إلى داخل الغرفة، وأسرعت نحو توم، لكنها توقفت عندما رأت النظرة التي علت وجهه.

سألت ليدي جين: «سيدي اللورد، هل أنت على ما يرام؟»

تعذر على توم التحدث، وحاول جاهدًا إخراج الكلمات من فمه، فقال: «نعم، أرجوكِ، عليكِ أن تساعديني. فأنا لست لوردًا أو أميرًا. اسمي توم كانتي، وأنا هنا عن طريق

الخطأ. تبادلنا أنا والأمير ملابسنا، وكان من المفترض أن يستمر الأمر بضع دقائق فقط، لكنني لا أدري أين ذهب. كان من المفترض أن يعود منذ وقت طويل.»

وعندئذٍ ركع توم أمام ليدي جين، وشابك يديه متوسلًا إياها أن تصدقه.

فصاحت ليدي جين: «سيدي اللورد، أتركع على ركبتيك؟ هذا غير مقبول يا سيدي.» واستدارت تاركةً توم وخرجت مسرعة من الغرفة.

استبد اليأس بتوم، وجثم على الأرض يبكي. «لا أمل، سأسجن الآن بلا شك.»

وفي هذه الأثناء، بدأ الذعر ينتشر في باقي أنحاء القصر، وسرعان ما ذاع الخبر بأن الأمير قد جُن؛ فهو يظن نفسه شخصًا آخر ولا يعرف ليدي جين. كيف لا يمكنه التعرف على فتاة عرفها طوال حياته؟ فوالدها صديق مقرب للملك، وقضى الأطفال وقتًا طويلًا معًا. كان الملك يرقد مريضًا في غرفته منذ فترة، وعندما تناهى إلى سمعه أخبار جنون الأمير، أرسل في طلب ابنه.

اقتيد توم المسكين من غرفة الأمير، وسار عدة أروقة طويلة، محاطًا بالأطباء والخدم وأفراد البلاط الملكي، وقد ملأ الرعب قلبه. لم تكن لديه أي فكرة عما يمكن أن يحدث. فبالتأكيد سيدرك الملك على الفور أنه محتال.

وبعد فترة وجيزة، كان توم يقف في غرفة دافئة وجميلة، وكان هناك رجل ذو لحية ضخم البنيان ممتلئ الجسم يستلقي على أريكة بالقرب من المدفأة. بدا الرجل صارمًا؛ وكان يهابه الكثير من الناس، لكن صوته كان حانيًا عندما تحدث مع الصبي.

سأل الملك هنري: «كيف حالك، يا بني؟ لقد أفزعت ليدي جين حقًّا.»

قال توم متلعثمًا: «أ ... أنت الملك؟» وهز رأسه: «إذن فهذه بالتأكيد نهايتي.»

تنهد الملك وهو يقول: «آه يا إدوارد، لقد تمنيت يا بني أن تكون الشائعات غير صحيحة، لكن ما أراه هو أنك تعاني من اضطراب شديد. اقترب مني يا بني.» أمسك هنري وجه الصبي في يديه بحنان وقال له: «ألا تتعرف على والدك العزيز؟» ونظر الملك إليه عن كثب ثم قال: «كم يحزنني أنك لا تتعرف عليّ.»

فأجاب توم: «أظن أنك الملك.»

شعر الملك بارتعاش بدن الصبي، فقال له: «أرجوك، لا تخف. لن يمسك أحد هنا بأذى.»

«أرجوك يا سيدي، عليك أن تصدقني، فأنا أقول الحقيقة. لست الأمير إدوارد، اسمي توم كانتي، وأنا متسول من «أوفال كورت»، ووجودي هنا جاء عن طريق الخطأ. ولا

أعلم أين الأمير إدوارد الآن.» وبدأ توم يبكي. «لا أريد أن أُسجن! أرجوك، لا أريد سوى العودة إلى منزلي وأسرتي وأصدقائي!»

رد الملك متسائلًا: «السجن؟ بني العزيز، بالطبع لن تُسجن. لماذا تفكر في مثل هذا الأمر؟ لماذا قد أرغب في عقابك؟ أنت حر دائمًا في الذهاب أينما شئت وفعل ما ترغب في فعله.»

فسأل توم والحماس يملؤه: «إذن، فأنا حر في الذهاب لأي مكان؟»

فقال الملك: «يمكنك الرحيل وقتما شئت، وإن كنت أتمنى أن تبقى بضع دقائق أخرى» ثم دقق النظر في توم وقال: «أين ستذهب؟»

«سأعود إلى منزلي بالطبع. فأصدقائي وأسرتي في «أوفال كورت» يبحثون عني بالتأكيد الآن.» شعر توم بالحماس وقد أوشك على الخروج من هذه المحنة.

نكس الملك رأسه وهو يقول: «ابني مجنون. نرجو رحمتك يا رب، أمير إنجلترا مجنون؛ لا يعلم من هو.»

نظر الملك إلى الأطباء وموظفي البلاط الملكي الموجودين في الغرفة، وقد بدا عليهم جميعًا القلق، ثم قال لهم: «أخبركم الآن جميعًا أن ابني سيصبح يومًا ما ملك إنجلترا، سواء أكان عاقلًا أم مجنونًا.»

تقدم كبير مستشاري الملك إلى الأمام، ويُدعى لورد هيرتفورد، ويتولى مساعدة الملك في عمله، وكان دائمًا بجوار الملك داعمًا إياه. قال هيرتفورد: «رغبات الملك أوامر.» ثم انحنى أمام الملك وتوم.

تنهد الملك مرة أخرى وقال: «ينبغي أن أرتاح الآن.» ثم أراح رأسه على الوسادة. «إدوارد، اذهب مع عمك هيرتفورد الآن يا بني، وتعال لرؤيتي في وقت لاحق بعد أن أنال قسطًا من الراحة.»

قاد لورد هيرتفورد توم إلى خارج الغرفة، وسار توم عبر الردهات مرة أخرى حتى عاد إلى غرفة الأمير. طالما راود توم حلم الحياة أميرًا في القصر، لكن حلمه كان يتحول سريعًا إلى كابوس.

الفصل الخامس

توم يتعلم قواعد القصر

في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم، أحضر لورد هيرتفورد مجموعة من الرجال إلى غرفة الأمير، وأشار إلى أحد المقاعد موضحًا أن على توم الجلوس. فعل الصبي كما أُمر، لكنه شعر شعورًا غريبًا، فهو يعلم أنه ليس من اللياقة الجلوس بينما يقف من هم أعلى منه شأنًا. طلب منهم الجلوس، فانحنى له جميع الرجال لكن ظلوا واقفين.

كاد توم يلح في طلبه عندما همس له لورد هيرتفورد في أذنه: «جلالتك، لا تلح في هذا الأمر. فليس من اللائق أن يجلسوا في حضرتك.»

استطرد لورد هيرتفورد: «اعذرني، جلالتك، لكنني بحاجة للتحدث إليك على انفراد للحظة» ووقف أمام توم وقال له: «أنا على يقين أنك تعلم مدى أهمية ثقة شعب إنجلترا في ملكهم.»

أومأ توم برأسه ببطء.

«وأنا متأكد أيضًا أنك تعي أن مرض والدك أقلق الكثير من الناس.» راقب هيرتفورد توم وهو يومئ برأسه مرة أخرى، ثم قال: «أصدر والدك أوامر بألا تتسبب في أي مشكلات أخرى، وطلب ألا تذكر بعد الآن هذا الفتى المدعو توم كانتي أو «أوفال كورت».»

أومأ توم برأسه، فهو يعلم أن ليس هناك ما يمكن قوله. لقد شعر أنه حبيس ملابس الأمير.

وبينما كان توم يراقبهم، تابع لورد هيرتفورد والرجال الآخرون عملهم. وكان توم يستمع إليهم ويومئ برأسه كدليل على الموافقة عندما كان هيرتفورد يشير له بضرورة ذلك. ورحل بعد ذلك جميع الرجال ما عدا لورد هيرتفورد، ودخلت الأميرة إليزابيث وليدي جين مبتهجتين.

مال لورد هيرتفورد على توم ليهمس في أذنه: «أرجو منك أن تتذكر رغبات والدك أيها الأمير إدوارد. فنحن لا نريد إزعاج أي شخص آخر.»

أومأ توم برأسه مرة أخرى، وأجاب بهدوء: «أجل.»

وجه توم بعد ذلك انتباهه إلى إليزابيث وجين. كانت الفتاتان مرحتين وممتعتين. وساعد وجودهما في إلهاء توم عن مشكلاته، لكن الأمر لم يكن يسيرًا تمامًا عليه؛ فتحدثت الفتاتان عن أشخاص وأشياء لم يعرفها، كما تحدثتا أحيانًا إليه بلغات لم يفهمها. لاحظت إليزابيث أنه كان يواجه صعوبة ما، فبذلت أقصى ما بوسعها لمساعدته عند ارتباكه، حتى إنها أمسكت بيده عندما بدا منزعجًا. وأدرك توم أنه مهما حدث له وهو حبيس هذا القصر، فسيظل يشعر دائمًا بالسعادة لالتقائه بإليزابيث وجين.

وبعد رحيل الفتاتين، أدرك توم شعوره بالتعب؛ فقد كان يومًا طويلًا. لذا طلب من لورد هيرتفورد والآخرين في الغرفة تركه بمفرده فترة من الوقت.

قال لورد هيرتفورد: «بالطبع، منك الأمر ومنَّا الطاعة.»

غادر الجميع الغرفة عدا الخدم، وانتظر توم أن يخرجوا أيضًا، فقال: «شكرًا على مساعدتكم، لكن أظن أنني سأغفو قليلًا الآن.»

«بالطبع يا سيدي.» قال أحدهم ذلك وهو يمسك برداء توم ويبدأ في فك أزراره.

تبيّن لتوم أنهم موجودون لمساعدته في خلع ملابسه، وتذكر حينئذٍ اندهاش الأمير إدوارد من عدم وجود من يساعد أختيه على ارتداء ملابسهما وخلعها. وقرر توم عدم المجادلة في الأمر، وبدلًا من ذلك، وافق على مساعدتهم له وهو يتنهد بعمق.

بعد استيقاظه من غفوته، عانى توم من المحنة نفسها، لكن هذه المرة بالعكس. فبدلًا من خلع ملابسه ليغفو، ألبسه الخدم ملابس ثقيلة وثمينة لتناول العشاء، ثم تقدمه أحدهم إلى غرفة كبيرة بها مائدة واحدة طويلة. فجلس توم على كرسي كبير ومريح بأحد أطراف المائدة.

بالرغم من أن توم كان يتناول الطعام وحده، فلم يكن بمفرده في الغرفة، حيث أحاط به الخدم ومقدمو الطعام. واستغرب توم الأمر؛ فبالرغم من أن لديه أخيرًا ما يكفي من الطعام لتناوله، كان من الصعب عليه الاستمتاع به.

نظر توم إلى منديل المائدة، ووجده مصنوعًا من قماش رقيق وناعم ويحيط بأطرافه خيط ملون. كان المنديل جميلًا للغاية، فقال توم لكبير الخدم: «رجاءً أبعد هذا المنديل كي لا أتسبب في اتساخه.»